

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ

الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ [المائدة: 30]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

بَيَّنَّتِ الْآيَةُ تَأْثِيرَ هَذِهِ الْمَوَاعِظِ فِي نَفْسِ ذَلِكَ الْحَاسِدِ الظَّالِمِ^(١)، وَالمَتَوَقَّعُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْوَعِظُ جَدِيرًا بِأَنْ يَكُونَ سَبَبًا لَطَاعَتِهِ، وَزَاجِرًا لَهُ عَنْ مَعْصِيَتِهِ، لَكِنْ قَسَا قَلْبُهُ، فَجَعَلَهُ سَبَبًا لِإِقْدَامِهِ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ^(٢).

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(١) ﴿فَطَوَّعَتْ﴾: "الطَّاءُ وَالْوَاوُ وَالْعَيْنُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الْإِصْحَابِ وَالْإِنْقِيَادِ، يُقَالُ: طَاعَهُ يَطُوعُهُ؛ إِذَا انْقَادَ مَعَهُ، وَمَضَى لِأَمْرِهِ"^(٣)، فَالطَّوْعُ: الْإِنْقِيَادُ، وَهُوَ نَقِيضُ الْكَرْهِ، وَ"فَلَانٌ طَوَّعَ يَدِيكَ، أَي: مُتَقَادٌ لَكَ، وَفَرَسٌ طَوَّعَ الْعَنَانَ؛ إِذَا كَانَ سَلَسًا"^(٤)، "وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنَ التَّرْكِيبِ هُوَ بِمَعْنَى: اللَّيْنِ وَالْإِنْقِيَادِ وَمَا يُؤْخَذُ مِنْهُمَا كَالِاسْتِطَاعَةِ وَالتَّطَوُّعِ"^(٥). فَمَعْنَى (طَوَّعَتْ) فِي الْآيَةِ: مُشْتَقٌّ مِنْ مَعْنَى الْإِنْقِيَادِ؛ أَي: شَجَّعَتْهُ، وَأَعَانَتْهُ عَلَى قَتْلِ أَخِيهِ، وَأَجَابَتْهُ إِلَيْهِ، وَسَهَّلَتْ لَهُ نَفْسَهُ ذَلِكَ، وَتَابَعَتْهُ، وَزَيَّنَتْ، وَسَمَحَتْ، وَهَوَّنَتْ، وَسَوَّلَتْ، وَشَايَعَتْ^(٦).

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

أَعْرَضَتْ نَفْسَ الْأَخِ عَنِ الْمَوْعِظَةِ وَالنَّهْيِ، وَالزُّجْرِ، وَاسْتَجَابَتْ لِهَوَاهَا، وَشَهْوَتِهَا؛ لِيَنْتَهِيَ الْمَوْقِفُ بَيْنَ الْأَخْوِينَ إِلَى تِلْكَ النِّهَايَةِ السَّيِّئَةِ، فَسَمَحَتْ نَفْسُ الْأَخِ، وَاتَّسَعَتْ لِقَبُولِ هَذَا الْمُنْكَرِ الْغَلِيظِ، فَقَتَلَ

استحكام
السُّرِّ وَالشَّهْوَةِ
يَعْلُو الْمَوَاعِظَ
وَالنَّصَائِحَ

(١) رضا، تفسير النار: 6/285.

(٢) البقاعي، نظم الدرر: 6/121.

(٣) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طوع).

(٤) الخليل، العين، والجوهري، الضاح، والزَّاجِب، المفردات: (طوع).

(٥) جبل، للعجم الاشتقاقِيّ لِلْمُؤَصِّل: (طوع).

(٦) الواحدي، التفسير البسيط: 7/340 - 342، وَالبَغَوِيّ، معالم التنزيل: 3/43.

أخاه، وأحمد أنفاسه، ظلماً وعدواناً، فكتب بيده وثيقة خسارته، وسطر بهذا الدَّم البريء المسفوك الحكم بإدانته، وسوء مصيره⁽¹⁾. وترشد الآية الكريمة إلى أَنَّ الشَّرَّ حين يستحكم في النَّفس، وينتصر على نوازع الخير والمحبة فيها، فَإِنَّ العُقْبَى خسراً، والمآل ندامة⁽²⁾.

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾:

قيل في الفاء في قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ﴾: إنها للسببية؛ أي: إِنَّ تَخْلِيَّ هَابِيلَ عن المقاومة والمقاتلة كان سبباً لتسهيل أمر القتل⁽³⁾، أو أَنَّها عاطفة دلت على التفرُّيع والتعقيب⁽⁴⁾؛ لتفيد ترتيب حصول معطوفها بعد حصول المعطوف عليه، فمعنى ﴿فَطَوَّعَتْ﴾: أجابته إلى ذلك، وانقادت له إلى ذلك، فَفَعَلَ⁽⁵⁾، فالفاء متناسقة مع فعل التطويع، وهو ما يُصوِّر سلاسة القتل وسهولته عند القاتل بعد اتِّخاذ قرار القتل، وهو فنُّ تصويري بديع.

فائدة التعبير بالفعل (طَوَّعَ):

دلَّ التعبير بفعل (طَوَّعَ) على "حدوث تردُّدٍ في نفس قابيل، ومغالبة بين دافع الحسد ودافع الخشية، فعلمنا أَنَّ المفرَّع عنه محذوف، تقديره: فتردَّد ملياً، أو فترصد فرصاً، فطَوَّعَتْ له نفسه، فقد قيل: إِنَّه بقي زماناً يترَبَّص بأخيه، (وطَوَّعَ) معناه: جعله طائعاً؛ أي: مكَّنه من المطوَّع"⁽⁶⁾، فهذه "الكلمة تدلُّ على تدريج، وتكرار في

تناسق فاء
التعقيب مع
فعل التطويع
من بديع
التصوير

ينطوي خلف
فعل (طَوَّعَ)
معنى التردُّد،
الذي انتهى
بالقتل

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/88، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 3/1077.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2128.

(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/447.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/172.

(5) مكي بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النهاية: 3/1683.

(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/172.

حمل الفطرة على طاعة الحسد الدّاعي إلى القتل؛ كتذليل الفرس، فهي تمثّل ولد آدم الذي زين له حسده لأخيه قتله، وهو بين إقدام وإحجام، يفكر في كل كلمة من كلمات أخيه الحكيمة، فيجد في كل منها صارفًا له عن الجريمة، يدعم، ويؤيد ما في الفطرة من صوارف العقل والقراة والهيبة، فغلب الحسد من نفسه الأمّارة على كل صارف في نفسه اللّوامة، فلا يزالان يتنازعان، ويتجادبان حتّى يغلب الحسد كلًّا منها، ويجذبه إلى الطّاعة، فإطاعة صوارف الفطرة وصوارف الموعظة لداعي الحسد: هو التّطوُّع الذي عناه الله تعالى، فلمّا تمّ كل ذلك؛ قتلَهُ، وهذا المعنى: يدلُّ عليه اللفظ، ويؤيِّده ما يعرف من حال البشر في كل عصر بمقتضى⁽¹⁾.

بلادة الاستعارة التّمثيلية:

إنّ الإنسان إذا تصوّر من القتل العمد العدوان؛ كونه من أعظم الكبائر، فهذا الاعتقاد يصير صارفًا له عن فعله، فيكون فعل القتل كالشيء العاصي المتمرد عليه المستصعب العظيم على النفوس حرمة ومهابة، الذي لا يطيعه بوجه البتّة، فإذا أوردت النفس اللّحوح الأمّارة أنواع وساوسها؛ صار هذا الفعل سهلاً عليه، فكأنّ النفس جعلت بوساوسها العجيبة هذا الفعل كالطّيع له، بعد أن كان كالعاصي المتمرد، النّافر منه، وصوّرت له أنّ قتل أخيه طوع له سهل عليه حتّى أوقعته في المحذور الشّنيع⁽²⁾.

قال الشّريف الرّضي: "وهذه استعارة، والمراد: سوّلت له، وقربّت عليه نفسه، ففعل، وطوّعت: فعّلت من الطّوع؛ أي: سهّلت نفسه عليه ذلك حتّى أتاه طوعًا، وانقاد إليه سمحًا"⁽³⁾.

"فالطّوع والطّواعية: ضدّ الإكراه، والتّطويع: محاولة الطّوع، شبيه قتل أخيه بشيء متعاص عن قابيل، ولا يطيعه بسبب معارضة التّعقل

تصوير فعل
(فطوّعت)
النفس بالأمرة
بالشرّ النّاهية
عن الخير

(1) رضا، تفسير النار: 6/285.

(2) الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/340، وأبو حيّان، البحر المحيط: 4/232.

(3) الشّريف الرّضي، تلخيص البيان: 2/131.

والخشية، وشبَّهت داعية القتل في نفس قابيل بشخص يعينه، ويدلُّ له القتل المتعاصي، فكان (طَوَّعَت) استعارة تمثيلية، والمعنى الحاصل من هذا التمثيل: أنَّ نفس قابيل سَوَّلت له قتل أخيه بعد ممانعة⁽¹⁾.

توجيه القراءات القرآنية:

قراءة طاوعت
تدلُّ على مزيد
ذمٍّ للقاتل
لاشتراكه في
التسهيل

قرأ الحسن والجراح والحسن بن عمران وأبو واقد: (فطاوعت)؛ ليكون ممَّا جاء من فاعل بمعنى: فعل، الدَّالُّ على الاشتراك، نحو: ضاربتُ زيداً، والمعنى: كأنَّ القتل يدعو إلى نفسه، ويحثُّها على الإقدام عليه بسبب الحقد، والحسد الَّذي أصاب قابيل، فطاوعت النَّفس القتل، ولم تمتنع، فواقعتها⁽²⁾.

وقرأ الجمهور ﴿فَطَوَّعَتْ﴾، والمعنى: أنَّ القتل في ذاته مستصعب عظيم على النفوس، تأبَّاه، وترفضه، فردَّ هذه النَّفس اللَّجوجة الأمَّارة بالسُّوء طائِعاً منقاداً حتَّى واقعه صاحب هذه النَّفس⁽³⁾.

غرض الإتيان بالجَّار والمجرور في قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ﴾:

تصوير شدة
الحرص
على القتل
بالوساوس
اللَّحوية

الجَّار والمجرور في قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ﴾؛ لزيادة الرِّبْط، كقولك: حفظت لزيد ماله⁽⁴⁾، يعني: أنَّه لو جاء، فطَوَّعَتْ نفسه قتل أخيه؛ لكان كلاماً تاماً جارياً على كلام العرب، وإنَّما جيء به على سبيل زيادة الرِّبْط للكلام، والتَّقوية للعمل؛ إذ الكَلَام يتمُّ بدونها، ويحصل بأن يقال: فطَوَّعَتْ نفسه قتل أخيه، كما أنَّك لو قلت: حفظت مال زيد؛ كان كلاماً تاماً⁽⁵⁾، وغرض هذه اللَّام تأكيدُ معنى الحرص على تطويع القتل وتسهيله، وفيه دعوةٌ للحدِّ من متابعة النَّفس فيما تُملِّيه على صاحبها من وساوس وأفكار.

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيزُ والتَّنْوِيرُ: 6/172.

(2) الرَّمْخَشَرَقِيُّ، الكَشَّافُ: 1/626، وابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/179 - 180، وأبو حيَّان، البحر المحيط: 4/232، وقراءة الحسن والجراح والحسن بن عمران وأبو واقد هذه قراءة شاذة.

(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 2/179 - 180.

(4) الرَّمْخَشَرَقِيُّ، الكَشَّافُ: 1/626.

(5) أبو حيَّان، البحر المحيط: 4/232 - 233، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على البيضاوي: 7/447.

براعة الإطناب في جملة الطّواعية:

قال ابن عاشور: "وقد سلك في قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ﴾ مسلك الإطناب، وكان مقتضى الإيجاز أن يحذف ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، ويقتصر على قوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾، لكن عدل عن ذلك لقصد تفضيع حالة القاتل في تصوير خواطره الشريرة وقساوة قلبه؛ إذ حدّثه بقتل من كان شأنه الرحمة به والرّفق، فلم يكن ذلك إطناباً⁽¹⁾ على الحقيقة، بل هو إيجازٌ بليغ، ظهر في صورة الإطناب، فإن الغرض البلاغي في الكلام إنما يتحقّق في جزالة الألفاظ.

نكتة التصريح بلفظ الأخوة:

التّصريح بالأخوة في قوله: ﴿قَتَلَ أَخِيهِ﴾ لكمال تقبيح ما سوّلته نفسه؛ لأنّ من حقوق الأخوة أنّ يحفظه من كلّ من قصده بالسوء بالتحمّل على نفسه، لا أن يترصد له الأذى⁽²⁾؛ فلمّا أتى بعكس المتوقّع كان نعتّه بالأخوة إدانةً بليغة.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾:

الفاء في قوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ للسّببية، قال البقاعي: "ثمّ سبّب عن هذا التّطويع قوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾"⁽³⁾، فنّبّه بقوله: ﴿فَقَتَلَهُ﴾ "أنّه تبع شيطانه الدّاعي إلى ذلك؛ تنبيهاً أنّ متابعة الشّيطان والهوى سبّب كلّ شرٍّ"⁽⁴⁾، ويُلح من ذكر الفاء: أنّه ما إنّ اتّخذ قراره لم يتوان في القتل، ولم يتمهّل، ولم يتردّد.

توجيه افتتاح التّذييل بلفظ ﴿فَأَصْبَحَ﴾:

ومعنى ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾: صار، ويكون المراد بالخسارة

مآل الإطناب
إيجازٌ يُصوّر
فضاعة حالة
القاتل وقساوة
قلبه

ذكر الأخوة في
معرض القتل؛
لتصوير كمال
إدانته

المسارعة في
القتل بعد
العزم عليه إنّهم
بالغ، وشرّ ذريع

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 6/172.

(2) الفاسمي، محاسن التّأويل: 4/110.

(3) البقاعي، نظم الدّر: 6/122.

(4) الزّاغ، تفسير الزّاغ: 327/4 - 328.

الخسارة
أخروية على
الحقيقة،
ودنيوية بالتبع

هنا: خسارة الآخرة؛ أي: صار بذلك القتل ممّن خسر الآخرة، ويجوز إبقاء «فَأَصْبَحَ» على ظاهرها؛ أي: غدا خاسراً في الدنيا، والمراد بالخسارة: ما يبدو على الجاني من الاضطراب وسوء الحالة وخيبة الرّجاء، فتفيد أنّ القتل وقع في الصّباح⁽¹⁾، "قال ابن عباس: أمّا في الدنيا؛ فأسخط والديه، وبقي بلا أخ، وأمّا في الآخرة؛ فأسخط ربّه تعالى، وأمر به إلى النار"⁽²⁾.

وجه تخصيص الصّباح بالذّكر:

خصّ الصّباح بذلك؛ لأنّه بدء النّهار والانبعاث إلى الأمور، ومظنّة النّشاط⁽³⁾، ومحلّ توقّع الارتياح⁽⁴⁾؛ "لأنّ (أصبح) تدلّ على أنّه كان مدرّكاً لما ارتكب عندما أشرق نور الصّبح، كأنّه وقت الحيرة، أو إرادة الارتكاب في ظلمة من عقله وقلبه، وفي ديجور من الظّلام يشبه ظلام اللّيل، حتّى كان الصّبح المنير الذي أراه الأمور على وجهها، وأدرك في ذلك الضّوء الذي جاء عند الصّباح مقدار الإثم فيما فعل"⁽⁵⁾.

علّة مجيء الفاصلة على صيغة اسم الفاعل:

وعبّر عن خسارة الأخ القاتل بقوله: «مِنَ الْخَسِرِينَ» بصيغة اسم الفاعل المجموع جمع مذكّر سالماً؛ للدّلالة على رسوخ صفة الخسران فيه، وكأنّ كينونته أنّه خاسر؛ أي: أصبح من "العريقين في صفة الخسران بغضب الله عليه؛ لاجترائه على إفساده مصنوعه، وغضب أبناء جنسه عليه لاجترائه على أحدهم"⁽⁶⁾.

غضب الله
مظنّة رسوخ
الخسران،
وثبوته صفة في
القاتل

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 6/173.

(2) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 4/328.

(3) ابن عطية، للحرر الوجيز: 2/180.

(4) البقاعي، نظم الدّر: 6/122.

(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2130.

(6) البقاعي، نظم الدّر: 6/122.

الفرق بين استعمال طَوَّعَت وسَوَّلَت:

الفرق بين قوله: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ في هذه الآية، وبين ﴿سَوَّلَتْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 18]: أَنَّ ﴿سَوَّلَتْ﴾ معناها: زَيَّنَتْ له، وليس فيها شِدَّة (طَوَّعَتْ) وقَوَّتْها، فنحن نقول مثلاً: الحديد يحتاج إلى تطويع؛ أي: يحتاج إلى جهد حتَّى تطوِّعه، وكذلك إن أردت أن تطوِّعَ جملاً، أو فرساً، أو وحشاً من الوحوش؛ فإنَّك تحتاج لوقت حتَّى تجعله يطيعك، مع جهد وبذل ومبالغة في التَّطويع حتَّى تروِّضه، والتَّسْوِيل لا يحتاج إلى مثل ذلك الجهد.

التَّطْوِيع
مِظَنَّةُ الشَّدَّةِ،
وَتَرْوِضُ
النَّفْسِ،
وَالتَّسْوِيلُ مِظَنَّةُ
الْيَسْرِ وَالسَّهُولَةِ

ولمَّا كان قابيل يفكر هل يمكن أن يقدم على قتل أخيه، فاحتاج وقتاً؛ لترويض نفسه ليفعل هذا الفعل، قال: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾، وفي طه قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ [طه: 96]، أمَّا في قصَّة السَّامِرِيِّ؛ فالأمر أيسر وأسهل؛ لأنَّه لم يقتل أخاه⁽¹⁾، وكذلك الأمر مع إخوة يوسف عليه السلام؛ إذ رموه في غيابة الجبِّ، ولم يقتلوه يقيناً، فقد كانوا متردِّدين بين قتله ورميه في الجبِّ: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: 10]، فليس في الأمر عزمٌ وشِدَّة، فضلاً عن كونه حديثاً ليوسف عليه السلام مع إخوته قبل أن يقوموا بفعلتهم، ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ [يوسف: 18].

❁ الفروق العُجْمِيَّة:

الاستطاعة ومرادفاتها:

القدرة: ما يظهر من القوَّة بقدر العمل لا زائداً عليه ولا ناقصاً.
الاستطاعة: ما يصير به الفعل طائعاً له بسهولة.
الوسع: ما يسع له فعله بلا مشقَّة.

(1) السامرائي، والنعمي، والكبيسي، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم: 66/6 - 67.

الجهد: ما يتعاطى به الفعل بمشقة.

الطاقة: بلوغ غاية المشقة⁽¹⁾.

ومن هنا ندرك علّة اختيار لفظة ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ دون مقارباتها؛ لما فيها من معنى طوعان الفعل بيسر وسهولة الذي يناسب ما تقدّم من تسويل نفسه الأمّارة بالسوء، ومنازعتها إيّاه بالتّوجيه بالقتل.

(1) الرّاغب، تفسير الرّاغب: 1/388.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1444هـ - 2023م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2023م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم

الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2023.

مج. 9، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-798-61-3

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 9: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ- العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي: 978-9948-798-61-3

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»